

بحث في تاريخ تواجد المسيحية في شمال إفريقيا و أسباب اندثارها قبل الإسلام

The Quest for the existence of Christianity in the North Africa and its disappearance before Islam

ط د فاضلي إيمان¹

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة - ، i.fadeli@univ-emir.dz

تاريخ الإرسال: 2025/02/11؛ تاريخ القبول: 2025/03/17؛ تاريخ النشر: 2025/06/01

الملخص باللغة العربية:

كانت المسيحية حاضرة في شمال إفريقيا بالتزامن مع انطلاق الكرازة بها في المشرق، وقد اختلف حول المنفذ الذي دخلت منه إلى المنطقة و لكن المتفق عليه أن أبرشية قرطاج كانت هي راعية المسيحية في شمال إفريقيا و القائمة على أمور الكنائس المحلية كلها من غرب ليبيا إلى المغرب مرورا بتونس و الجزائر حاليا، كما كانت أبرشية قرطاج بدورها تابعة إداريا و لاهوتيا لأسقفية روما لذا احتلت كنيسة قرطاج مكانة عالية في قلوب و عقول المسيحيين منذ انشائها في القرن الثالث للميلاد إلى غاية اندثارها، و قد جاءت هذه الورقة للبحث في أسباب اختفاء المسيحية من شمال إفريقيا و اندثار كنيسة قرطاج رغم عظمتها التي يشهد لها بها التاريخ و معها كل الكنائس المحلية في شمال إفريقيا و مدى ارتباط هذا الاختفاء بالفتح الإسلامي للمنطقة خاصة أن الكثير من المصادر المسيحية تُرجع هذا الاختفاء إلى ممارسة بعض الحكومات الإسلامية لنوع من التطهير العرقي ضد المسيحيين مما اضطرهم للإجلاء منها، و قد وجدنا من خلال التتبع التاريخي للتواجد المسيحي بالمنطقة و اختفائه منها أن الأمر متعلق أكثر بالطبيعة الإستقلالية للمسيحية المحلية و قياداتها الدينية و إلى كثرة الإنشقاقات فيها عن السلطة المركزية في روما و كذا في بيزنطة .

الكلمات المفتاحية:

الكنيسة المبكرة ؛ شمال إفريقيا ؛ الوجود المسيحي في شمال إفريقيا ؛ الفتح الإسلامي ؛ أسباب اندثار المسيحية من شمال إفريقيا .

Abstract : Christianity was present in North Africa simultaneously with its spread in the East. There is disagreement about the route through which it entered the region, but it is agreed that the Archdiocese of Carthage was the guardian of Christianity in North Africa, overseeing all local churches from western Libya to Morocco, passing through present-day Tunisia and Algeria. Since the Archdiocese of Carthage was also administratively and theologically subordinate to the Diocese of Rome.

This paper aims to investigate the reasons behind the disappearance of Christianity from North Africa and the extinction of the Parish of Carthage despite its historical significance, along with all the local churches in North Africa, and the extent to which this disappearance is linked to the Islamic conquest of the region. Many Christian sources attribute this disappearance to the ethnic cleansing practices by some Islamic governments against Christians, forcing them to evacuate. However, through a historical examination of the Christian presence in the region and its disappearance, we found that it is more related to the independent nature of local Christianity and its religious leadership, as well as the numerous schisms within it from the central authority in Rome and Byzantium.

Keywords: The early church; North Africa; the Christian presence in North Africa; the Islamic conquest; the reasons for the decline of Christianity in North Africa

مقدمة: سيطر الرومان على (قرطاجة) و احتلوها سنة 146 ق م و أعادوا بناءها سنة 120 ق م و سموها مقاطعة أفريقيا و عينوا مدينة قرطاجة عاصمتها ، و قد انتقل إليها الكثير من المواطنين الرومان من الفقراء و كذا الميسورين بعد أن أصبحت تحت السلطة الرومانية فازدهرت و صارت أهم الأقاليم في شمال إفريقيا إلى أن فتحها المسلمون بقيادة الصحابي حسان بن النعمان سنة 703م / 74 هـ ، و لكن تاريخها السياسي الطويل لم يغط على تاريخها الديني المتنوع إذ سكنها الوثنيون المحليون و الرومان و التوحيدون من اليهود ثم المسيحيون ، ثم المسلمون الذين يستمر وجودهم فيها إلى اليوم ، و على عكس احترامهم و تبجيلهم لليهود حارب الرومان الوجود المسيحي بكل قوة في كامل أراضي الإمبراطورية الرومانية بداية من القرن الثاني للميلاد لأسباب عديدة ، و قد كان أشد العهود تنكيلا و اضطهادا للمسيحيين عهد الإمبراطور (ديوكليتيان **Diocletianus** 284-305 م) فكانت سنة 284م تُسمى (عصر الشهداء) لكثرة القتل المسيحيين فيها بسبب الإصلاحات الكثيرة التي قام بها في الإمبراطورية التي كان من بينها القضاء على الأقليات الدينية المخالفة لدين الإمبراطور ، و لكن جاء الفرج مع اعتلاء الإمبراطور قسطنطين مقاليد الحكم سنة 312م أين كانت أول قراراته العفو عن المسيحيين و إدخالهم في حماية الدولة كغيرهم من الأقليات الدينية على تراب الإمبراطورية و الاعتراف بشرعية ملتهم فيها ، هنا بدأ نجم المسيحية يسطع على كامل البلاد حتى وصلت إلى السلطة و أعلن الأباطرة اللاحقون بداية من ثيوديسيوس العظيم 347-395م أن دين الدولة الرسمي هو المسيحية ، و لها كانت أسقفية روما أهم الأسقفيات في العالم المسيحي كله كانت تخضع لسلطتها مقاطعات كثيرة و من بينها مقاطعات الغرب كلها و من أهمها على الإطلاق (أبرشية قرطاجة **Carthage Perish**)، و سرعان ما احتلت أبرشية قرطاجة مكانة عالية في قلوب و عقول المسيحيين الغربيين منذ إنشائها سنة 249م على يد القديس كبريانوس ، و قد كانت تضم تحت سلطتها هي الأخرى الكثير من الكنائس الصغيرة في كل من غرب ليبيا و تونس و الجزائر و المغرب ، و لكن حدث أن اختفى ذكر كل هذا الزخم الحضاري المسيحي في المنطقة من التاريخ بعد دخول الإسلام إليها خلال القرن السابع للميلاد ، و كثيرا ما نجد المراجع المسيحية تربط هذا الاختفاء بالإسلام و السلطات الإسلامية ؛ إذ تتهمهم بممارسة نوع من التطهير العنصري ضد غير المسلمين من المسيحيين و اليهود في المنطقة حتى لا تكاد تقع على ذكر لهم بعد القرن 7م ، و لهذا جاءت هذه الورقة البحثية للتحقيق في تاريخ الوجود المسيحي و استمراره في شمال إفريقيا حتى بعد الفتح الإسلامي ، و كذا للبحث في مدى صحة الربط بين دخول الإسلام إلى المنطقة و خروج المسيحية منها ؟ و سنجيب فيها عن تساؤل رئيسي هو :لماذا اندثرت المسيحية من شمال إفريقيا ؟ و متى كان ذلك بالضبط ؟ ، و هذا كله لعلنا نفهم

سبب صمود المسيحية في المشرق و اختفائها من شمال إفريقيا متقصين أهم الآراء المتعلقة بالموضوع لدى اللاهوتيين أولاً ثم المؤرخين ، لذا سنقسم البحث إلى قسمين رئيسيين هما :

* تاريخ التواجد المسيحي في شمال إفريقيا و دلائله .

* الأسباب المحتملة لاندثار المسيحية و كنائسها من شمال إفريقيا .

1- تاريخ التواجد المسيحي في شمال إفريقيا: نواجه إشكالات اصطلاحية عديدة متعلقة بتاريخ التواجد المسيحي بالمنطقة محل الدراسة قبل الإشكالات التاريخية ، و التي تجدر الإشارة إليها في هذا المقال لأنها هي مفاتيح فهم هذا التاريخ و التي سنصادفها في الكتابات التاريخية حول الموضوع و أهمها مصطلح (شمال إفريقيا) ، و مصطلح (الكنيسة المبكرة في إفريقيا) .

1.1- المصطلح الأول (شمال إفريقيا North Africa): يشمل هذا المصطلح جغرافيا المنطقة من مصر و التي من العادة أن تُضم إلى المشرق رغم أنها من شمال إفريقيا ، و إثيوبيا و السودان شرقا إلى المغرب و موريتانيا غربا مرورا بليبيا و تونس و الجزائر وصولا إلى المغرب ، و لهذا فالغالب عند الحديث عن المسيحية في شمال إفريقيا في الكتب أن تكون بعض الأقاليم فقط هي المقصودة دون غيرها و هي تقتصر على مقاطعة إفريقيا (تونس حاليا و جزء من الشمال الشرقي للجزائر) ، مع العلم أن هذه الأقاليم اختلفت تقسيماتها و حدودها و تسمياتها السياسية منذ الفترة الكنعانية ثم الرومانية ثم الإسلامية ، أما الفترة الوندالية و البيزنطية فقد أبقوا على التسميات و التقسيمات و كذا النظم الرومانية ، و المهم بالنسبة لنا في هذا المقال هي الفترة الرومانية لأنها تتوافق مع ظهور و انتشار المسيحية في العالم ككل ثم الفترة الإسلامية ، و قد كانت المنطقة محل الدراسة تحت الحكم الروماني تنقسم إلى ثلاث مقاطعات كبرى " البروقنصلية (ثلاث ولايات ولاية طرابلس و لاية مزاق و ولاية البروقنصلية و عاصمتها قرطاج) ، مقاطعة نوميديا (ولاية نوميديا و عاصمتها سيرتا و ولاية نوميديا العسكرية و عاصمتها لمباز (تازولت حاليا) ، و ابتداء من سنة 313م ضم قسطنطين الولايتين مع بعضهما و سميت سيرتا بقسنطينة تكريما له ، و مقاطعة موريتانيا القيصرية عاصمتها قيصرية (تبيازة وسط الجزائر حاليا) ، إضافة إلى موريطانيا السطيفية و عاصمتها سطيف ، و أما موريطانيا الطنجية غربا و عاصمتها طنجة المغربية فانفصلت عن الإدارة الإفريقية و ضُمت إلى دائرة إسبانيا "(جوليان، 1983 ، ص 276) لكن الكنيسة لم تقيد بهذا

التقسيم فكان (كبريانوس) يدعو جميع الأساقفة الأفريقان لمجمع واحد دون تحديد و أسقف قرطاجة كان يدعى (بابا) ، كما أنه وجب التفريق بين الفترة الرومانية ثم الوندالية ثم البيزنطية ثم الإسلامية لأن لكل واحدة منهن خصوصيتها التي تستوجب احترامها عند البحث ، بالإضافة إلى أن الأقاليم المذكورة سابقا تختلف حتى من حيث انتمائها إلى تاريخ المسيحية فمثلا ليبيا الحالية لها علاقات تاريخية بالمسيحية الشرقية و كنيسة الإسكندرية من ناحيتها الشرقية حيث توجد المدن الخمسة الغربية (بينتابولس)، بينما ترتبط طرابلس ليبيا (تريبوليس) و القسم الغربي منها بأسقفية قرطاجة في الغرب و هي المقصودة بالبحث في هذا المقال ، أي أن المنطقة التي تشملها الدراسة هي المنطقة التي تضم (البروقنصلية و نوميديا) .

2.1- المصطلح الثاني) الكنيسة المبكرة في إفريقيا the early Church of Africa

(Africa): فهو يُعنى بتاريخ الإرساليات التبشيرية الأولى إلى قارة إفريقيا ككل و التي يمكننا أخذ بعض المعلومات عنها من سفر (أعمال الرسل) من الكتاب المقدس المسيحي ، فقد ذكر هذا السفر أن أشخاصا من قارة إفريقيا كانوا سمعوا من المسيح نفسه و آخرون سمعوا من حواريه ؛ و منهم (الخصي الحبشي)¹ (انظر التعليق 1) ، بالإضافة إلى (مرقس الرسول)² (انظر التعليق 2)، و (شمعون القوريني)³ (انظر التعليق 3) ، و قد تبدو هذه المعلومات وفيرة إلا أنه غير معترف بها إلا لاهوتيا ؛ فالمؤرخين لا يعتمدون عليها لتعلقها بموثوقية و مصداقية الكتاب المقدس كمصدر تاريخي ، خاصة أنه لا توجد وثائق تاريخية أخرى تعضدها تعود إلى تلك الفترة ، و يعود هذا الشح في المعلومات حول الفترة الأولى من تاريخ المسيحية ككل إلى قلة أعداد المسيحيين و كونهم مطاردين لذا لم يتمكنوا من كتابة شيء عن تمسحهم و مصدره و قد تكون كتاباتهم قد ضاعت في خضم ما عانوه خلال تلك الفترات العصيبة ، ثم لكونهم فئة ليست على ذلك القدر من الأهمية حتى يكتب عنها المؤرخون المشهورون حينها ، فهذه كلها أسباب تفسر شح المعلومات عن بدايات المسيحية المبكرة في العالم ككل لذلك يعتبرها اللاهوتيون (صفحات بيضاء في تاريخ حركة التنصير في العالم) و ليس فقط في شمال إفريقيا و هذا أمر متفق عليه لدى المؤرخين الكنسيين ، و لذلك فالمصادر المسيحية تُجمع على أن بدايات المسيحية في شمال إفريقيا و كيفية وصولها و انتشارها فيها غير معروفة و تقتقر إلى الوثائق ، و لكن هذا لا يعني إنعدامها تماما فهناك الكثير من الدلائل على الوجود المسيحي في المنطقة و استقراره فيها ؛ من كتابات لاهوتية و نقائش و أطلال كنائس و تجمعات سكنية و مدافن لا تزال قائمة إلى اليوم لتشهد على ذلك الوجود ، تعود أقدمها إلى القرن الثاني للميلاد و ليس قبله لأنها الفترة التي ظهر فيها أمر المسيحيين في المنطقة ، و على العموم فإننا نجد

نظريتين متداولتين حول ذلك التاريخ (عادل، 2006، ص146): الأولى: تقول أن المسيحية وصلت إليها من طريق (روما) باعتبار أن المنطقة تابعة مباشرة لها و تحت سلطتها الإدارية فيكون المبشرون قد عبروا إلى الضفة الجنوبية للمتوسط حاملين معهم البشارة بالدين الجديد مع التجار أو الوافدين على المنطقة ، أو عن طريق الفارين المسيحيين من الإضطهادات الممارسة ضدهم في (روما) أو عن طريق الرسول (مرقص القوريني) و بالتالي فإن دخول المسيحية إلى مصر كان عن طريق الجماعات اليهودية في ليبيا (المدن الغربية الخمسة) ، و الثانية: ترجح أن المسيحية دخلت من (الشرق) إلى مصر ثم إلى ليبيا باعتبار ليبيا تابعة إداريا و تاريخيا و جغرافيا لمصر و لكنيسة الإسكندرية و هذا يجعل تاريخ المنطقتين واحدا ، و من ليبيا وصلت إلى المناطق الشمالية لإفريقيا خاصة الساحلية منها عن طريق اليهود التجار أو عن طريق المضطهدين الفارين من الشرق ؛ فيكون مركز الانتشار دائما هو ليبيا (البنتابولس Pentapoli) وأهمية هذه المدن ليست خافية تاريخيا ، و رغم ذلك لا يوجد ما يؤيد إحدى النظريتين إلا أنهاما تلتقيان في (روما) و تفترقان في شمال إفريقيا ، و الأكيد أن (روما) كانت منطلق الرحلات التبشيرية إلى شمال إفريقيا رغم أن " المسيحية في إقليم برقة (بنتابوليس Pentapoli) قد اتخذت منذ البداية و حتى آخر العهد الروماني وجهة غير الوجهة التي اتخذتها المسيحية في طرابلس (تريبوليس Tripoli) فقد ارتبطت الأولى بكنيسة الإسكندرية و عاشت في خضم الصراع العقائدي الذي دار في المشرق المسيحي ، بينما ارتبطت المسيحية في طرابلس بكنيسة روما و عاشت في خضم الصراع العقائدي الذي ساد تاريخ المسيحية في الغرب المسيحي ، و لعل المرة الوحيدة التي ارتبطت فيها طرابلس ببرقة هي الفترة التي خضعت فيها طرابلس للبيزنطيين بعد القضاء على الوندال "(بازامة، د ت، ص 60-61) ، رغم أن مؤرخي الكنيسة القبطية دائما ما يعودون بتاريخ المسيحية في مصر إلى الشرق إلى ما قبل الرسول مرقص القوريني ليتجنبوا الإرتباط بروما ؛ فقد عادوا به إلى زمن رحلة العائلة المقدسة إلى مصر زمن اضطهاد هيروودوس لليهود و لهم أدلة كثيرة على ذلك و هذا ليكون لهم تاريخ خاص بهم و ليرتبطوا أكثر بالشرق مركز الدعوة الأول — و هذا ليس موضوع بحثنا- (يوحنا، د ت، ص 7)، و آخرون يؤخرون الوجود المسيحي في مصر إلى فرار المسيحيين من فلسطين بعد التمرد اليهودي الأول على الرومان زمن تدمير الهيكل الثاني خلال القرن الأول للميلاد أي الفترة بين 66م إلى 70م حسب المؤرخ الكنسي (جون لوريهر) (لوريهر، 1982، ص 79) ، و بالتالي كان هناك مركزان واضعان قاما على الشواطئ الجنوبية للمتوسط وهما : مركز (كيرانكا) أو قورينيا الليبية و هي شحات حاليا⁴ (انظر التعليق 4) ، و كان واقعا تحت تأثير كنيسة الإسكندرية ، و مركز (قرطاجة) الواقع تحت تأثير كنيسة روما (عادل، 2006، ص 147)، و لكن الطريقتين في الحقيقة ليستا

متعارضتين بل عملتا معًا على إدخال وازدهار المسيحية في المنطقة و هذا الطرح يتبناه أيضا المؤرخ الفرنسي (بول مونصو) الذي نقله عنه الدكتور عبد الحميد عمران في رسالته للدكتوراه حيث "يرى أن المسيحية جاءت من المشرق قبل أن تدخل من روما و أن أصل الكنائس بالمنطقة متعدد" (عمران، 2010-2011، ص76)، أي أن مصر كانت مصدر البشارة الأولى و روما مصدر التنظيم و التأسيس لكنائس شمال إفريقيا، كما يعتقد المؤرخ الكنسي (جون لوريير) أن البشارة حُمِلت أولاً إلى المجامع اليهودية المنتشرة على طول السواحل المتوسطية و في المدن الكبرى و منها إلى المناطق الداخلية، يقول: "عندما خرج الرسل و المبشرون من أورشليم إلى الأمم ركَزوا جهودهم بين اليهود اليونانيين فذهبوا إلى المراكز اليهودية، عبدوا ووعظوا في المجامع اليهودية و ربّحوا الكثير من هذه المجتمعات سواء من الذين ولدوا يهودا أو من الدخلاء أو من المتعاطفين مع الديانة اليهودية، و لذلك لم يكن غريباً أن اعتبرت المسيحية و لمدة طويلة جزءاً من اليهودية و استمروا يتمتعون بامتيازات اليهود .." (لوريير، 1982، ص76)، و جاء في كتاب لأحد رهبان دير القديس (مكاريسوس) بعنوان (دراسات في آباء الكنيسة) يقول: "و نحن لا نعلم بالضبط من الذي حمل المسيحية إلى قرطاجة و ما جاورها من ساحل إفريقيا الشمالي لكننا نعرف أن كثيراً من اليهود كانوا قيروانيين و هي إحدى المدن الخمس الغربية" (ميناء، 2001، ص111)، و هو يقصد قورينا الليبية (كيريانكا) و هذا يعني أن الرحلات التبشيرية الأولى كانت تعمل ضمن المجامع اليهودية قبل أن يحدث الانفصال بين المسيحية و اليهودية، و قد كان بشمال إفريقيا جماعات يهودية منذ عهد البطالمة حسب أقدم المصادر التاريخية لليهود أمثال المؤرخ اليهودي (يوسيفوس فلافيوس)، لكن رفض اليهودية للمسيحية و مناصبتها العداء صَعَب الأمر على المسيحيين إذ أصبح لهم أعداء جُدَد من غير الوثنيين و السلطة الرومانية بعد أن كانوا يُحتسبون على اليهود، إذا كانت المجامع اليهودية هي الحاضنات الأولى للمسيحية في شمال إفريقيا انطلاقاً من (قورينا) وصولاً إلى تيبازة بالجزائر و هذا ما اتفق عليه المؤرخون و اللاهوتيون؛ و جاء في كتاب (الكنيسة المسيحية في عصر الرسل) في معرض حديثه عن أهم الأسباب التي مهّدت لانتشار المسيحية في العالم أشار إلى أن (اليهودية و انتشارها) كان عاملاً قوياً في ذلك سواء قبل أو بعد الانفصال يقول الأنبا يووانس: "...كانت المجامع اليهودية في الشتات بالنسبة للمسيحية الناشئة مراكز اضطهاد و معاقلة لمقاومة المسيحية و تعاليمها لكن الله استخدم هذا العدو الكبير لخير العالم؛ لقد كان انتشارهم في كل أنحاء الإمبراطورية بمثابة الأساس الذي بنت عليه المسيحية...لقد أمدت هذه المجامع الكنيسة المسيحية بمراكز و مناهج للتبشير سرعان ما طورتها بما يتفق مع روحها و رسالتها" (يووانس، 1980، ص132)، هذا بالإضافة إلى (دور الإمبراطورية الرومانية) التي وَحَّدت

حوض المتوسط تحت سلطتها ؛ فكثرة الطرق التي شقتها برا و بحرا سهل التبادلات التجارية و العلاقات البشرية بين المسيحيين و غيرهم (روبين ، 1999 ، ص61)، كما أشار و ياسباه إلى أهمية (المدن الخمسة الغربية الليبية) في نشر المسيحية في الغرب حيث كانت معقل اليهود في ليبيا ثم إنها مسقط رأس القديس (مرقص الرسول)(يوؤانس ، 1980 ، ص135) ، هذا عن نظريات وصول المسيحية إلى شمال إفريقيا و طرقها .

2- الأسباب المحتملة لاندثار كنيسة شمال إفريقيا : سنحاول هنا حصر كل الأسباب المطروحة لهذا الإندثار و محاولة الترجيح بينها و لكن يجب التأكيد على أن الإندثار لم يحدث فجأة أو بتلك السرعة التي تصورها المصادر التاريخية فالمؤرخ (Phillip Jenkins) فيليب جانكينز) يشير في كتابه (The Lost History of Christianity) و تحت عنوان (شبح العقيدة the ghost of faith) إلى أن الدين المنتصر كثيرا ما يعيد تشكيل المعالم و المدن لصالحه و لكننا بالتأكيد يمكن أن نتلمس معالم الدين المنهزم حتى في ممارسات الناس التي تشبه إلى حد كبير طقوس الدين المنقرض مما يدل على زواله اسما فقط و هذا يدعو للسخرية حقا ؛ فلماذا ندعي وجود دين جديد بينما لا جديد تحت الشمس ، فقد حاول الرومانيون الوثنيون و من بعدهم المسيحيون طمس معالم الديانات المحلية في المنطقة إلا أن آثارها كانت واضحة لم تمح و هو يرى أن اختفاء المسيحية من المنطقة لم يكن سريعا و لا مفاجئا على عكس ما تصوره المصادر ، يقول :

(When Christian communities are destroyed, they rarely vanished entirely or immediately, and survivors often maintain a clandestine existence for many years afterward) (Jenkins, p 175)

فكنيسة إفريقيا لم تضم في صفوفها أساسا إلا مؤمنين رومان و عددا من البربر المترومين و هؤلاء كانت الظروف التاريخية كفيفة باستبعادهم من المنطقة و نقصد هنا الغزوات المتكررة على المنطقة (الوندالي ، البيزنطي و الفتح الإسلامي) و قد يكون هذا الأخير أرحمها بهم إذ دلت الشواهد التاريخية على استمرار الوجود المسيحي في ظل الفتح الإسلامي و بسلام نظرا لما تتميز به الشريعة الإسلامية من رعاية لحقوق أهل الذمة ، يقول المؤرخ كامب : " و على الرغم من التحول المكثف الذي كان من البربر إلى الإسلام فلقد بقي للمسيحية وجود لديهم دون شك حتى القرن الحادي عشر (ق11م) فذلك ما تدلنا عليه سلاسل كثيرة من شواهد القبور في طرابلس الغرب (النجيلة) و في تونس(القيروان) كما تشهد عليه المراسلة التي كانت من البابا جريجوار السابع و التي

تفيدنا أنه في سنة 1053م كان لا يزال لأحد الأساقفة وجود في قومي Gummi (تونس)، كما تشهد عليه بعض النصوص القليلة لبعض الكتاب العرب فهذا البكري قد ذكر جماعة مسيحية كانت تعيش في تلمسان في القرن الحادي عشر وهذا (لويكي T. Lewicki) قد ذكر أنه تعرف على ساكنة مسيحية مهمة تعيش بين البربر الإباضيين في ورقلة بين القرنين العاشر و الثالث عشر " (كامب، 2014 ، ص216-217)، فمعتنقو المسيحية في شمال إفريقيا كانوا من العبيد و الوافدين الوثنيين الذين جلبهم الرومان معهم لخدمتهم ، كما أن الوثائق التاريخية تشير إلى انتشار المسيحية بين الميسوريين و المثقفين الرومان و المترومين الذين كانوا عوناً للمحتاجين و الفقراء ، و قد حثهم رجال الدين على التصديق بأموالهم و مساعدة إخوانهم و التبرع لدعم الكنيسة المسيحية و بناء الكنائس و المقابر الخاصة بهم، مما يعني بناء دولة داخل دولة و هذا من أسباب حنق الرومان عليهم و اضطهادهم ، و إن صادف و تمسح أحد من السكان المحليين فقد ارتد لاحقاً في جملة من ارتدوا و جحدوا عند أول فرصة أتحت لهم خاصة مع الثورات المحلية التي كانت تُفجر بين الفينة و الفينة ضد السلطات الرومانية ؛ وقد كانت هذه الثورات تعبر عن رد فعل السكان الأصليين الحقيقي و الطبيعي تجاه الأوضاع التي آلت إليها بلادهم ، وقد اعتبر الدكتور محمد دبو في كتابه (تاريخ المغرب الكبير) هذه الثورات علامة للنضوج الفكري يقول : "إن تلك الثورات علامة النضوج في الأمة و دليل الرقي في البربر و آية الزكاء في النفوس و السلامة في الطباع و هي مما يُشرف البربر في التاريخ و يورثهم الإحترام و التبجيل من كل الأمم العاقلة التي تنظر إلى الأمور بالعقل الحصيف لا بالقلوب التي يعميها الحقد و التعصب " (علي، 2010 ، ص335) ليرد بذلك على كل من اعتبر الثورة على الدخيل المستبد علامة للتخلف و رفضاً للتحضر و همجية في الطباع و خاصة اللاهوتيين منهم ، لذلك يمكن أن نصنف عدم الخضوع و الرغبة الجامحة في التحرر و الإستقلال ضمن أهم أسباب زوال الكنيسة المسيحية من شمال إفريقيا أيضاً .

كتب القس بولس سيزيه اليسوعي أحد اللاهوتيين البروتستانت مقالاً سنة 1993 تحت عنوان (أسباب زوال الكنيسة في شمال إفريقيا بعد الفتح العربي) حاول فيه دراسة وضعية كنيسة قرطاجة و أسباب زوال المسيحية من المنطقة ؛ أين ربط زوال الكنيسة المسيحية من المنطقة بالفتح الإسلامي (العربي) للمنطقة و ليس قبله ، و مع أنه تعرض بالتحليل و الناقشة لكثير من الأسباب إلا أنه اعتبر الفتح العربي و طبيعته البربرية أهم تلك الأسباب ، و نظراً إلى أن الفتح العربي للمنطقة تم على مراحل منذ سنة 647م فقد اعتبر أن أهم مرحلة أدت إلى الزوال النهائي لهذه الكنيسة كانت فترة الهجرات العربية المدمرة لقبائل بني هلال و بني سليم إلى المنطقة سنة 1051م ، و بعدها دولة الموحدين

المعروفة بسياستها الدينية المتعصبة تجاه اليهود و المسيحيين خاصة فترة حكم المهدي بن تومرت الذي فرض الإسلام عليهم بالقوة و قتل من رفض اعتناقه (أحداث بجاية سنة 1153م و أحداث تونس سنة 1159م) (سيزيه ، 1993 ، ص10) و لكننا نجد سرعان ما يقلل من حدة كلماته في الصفحات التالية للمقال أين يذكر أسبابا أخرى ساهمت بالقليل أو بالكثير في التعجيل بزوال الكنيسة بمذاهبها من المنطقة و أهمها (الإنشقاق الدوناتي) الذي أضعف المسيحية في المنطقة و سبب شرخا عظيما بين قرطاجة و روما و خاصة بعد اتحاد الدوناتيين (المذهب المسيحي المحلي) و فرقة الدوارين (الثورة المحلية) ضد السلطة الرومانية نهاية القرن الرابع للميلاد .

و الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن الكنيسة المسيحية لاتزال مزدهرة في مناطق أخرى من شمال إفريقيا إلى اليوم(مصر و إثيوبيا و ليبيا) و أن الكنيسة التي زالت تدريجيا و فعليا هي أبرشية (قرطاجة) و الكنائس التابعة لها في بلاد المغرب ؛ إذ بدأ الزوال و الانحصار من تونس أولا ، ليشمل كنائس الجزائر و المغرب بالدرجة الأقل و الأبطأ حيث استمر التواجد المسيحي فيها حتى بعد اعتناقها للإسلام .

كما كان اليسوعي يركز على ادعاء (بربرية السكان المحليين) وطبيعتهم الهمجية الرافضة للتحضر و الرقي الذي جاءت به المسيحية و هذا ما يتفق عليه الكثير من اللاهوتيين و المؤرخين ذوي النزعة الدينية في دراساتهم التاريخية و الأنثروبولوجية للمنطقة بعد عجزهم عن تفسير سبب عدم استقرار الأجانب فيها ، بعكس وضع الدين الإسلامي الذي يُعتبر استقراره و ثباته فيها ظاهرة عجيبة في حد ذاتها ، مع أن الوجود الإسلامي ذاته عانى الرفض و الثورات حتى أنزل الله قبوله في قلوب السكان ، لنخلص في الأخير إلى أن اليسوعي يعتقد أن السبب الأقوى لاندثار كنيسة قرطاجة من المنطقة كان الفتح الإسلامي و ما نتج عنه من تغيرات جذرية على جميع الأصعدة ، و يعضده في هذا الرأي المؤرخ (غابرييل كامب) إذ يقول : " و لقد كان في تضافر التعصب الموحدي و الفوضى البدوية العامل الوحيد في القضاء على هذه الذخائر الثقافية و الدينية لإفريقيا الرومانية ..." (كامب ، 2014 ، ص217) .

ليخرج علينا صاحب مقال (زوال المسيحية من شمال إفريقيا مع صعود الإسلام The Disappearance of Christianity from North Africa in the Wake of the Rise of Islam) الباحث (C.J. Speel) باعتقاده أن السبب الأقوى لاختفاء المسيحية من شمال إفريقيا كان المذهب المسيحي الوافد الذي سماه (المسيحية

الآريوسية للوندال (The Vandal Arianism), (C.J, 1960 , p379) ، ليضيف أن تأثير الآريوسية الآرية في تدمير المسيحية في شمال إفريقيا كثيرا ما أهمل لذلك فهو يصدد إظهار قوته في مقاله هذا يقول :

(Indeed, the only surprising feature is the fact that the impact of Teutonic Arianism has been so long underestimated or overlooked) (C.J, 1960, p393) .

كما أنه لا الدوناتية و لا الفتح الإسلامي من ساعد في ذلك الزوال بل إن الوندال الآريوسيين هم من ساعدوا البربر على الثورة ضد السلطة الرومانية و البيزنطيين يقول :

(Vandal Arianism provided acceptable arguments for the Berbers and other North Africans' political and cultural challenge to the Empire, moreover, Vandal Arianism, which was closer theologically to Islam than any other form of Christianity, provided an effective transitional stage between Trinitarianism and Islam .The completion of this transitional resulted in an effective break between the Berbers and the Romano-Byzantine Catholics) (C.J, 1960,p381) .

مع أنه لا يتغاضى عن تأثير و دور الإنشقاقات في الكنيسة المحلية و الثورات الداخلية أيضا ، فهو من الفريق الذي يرى أن الآريوسية مذهب توحيدي لذلك كان مقدمة لتقبل الإسلام في المنطقة ، بل يرى أن هذا العنصر أيضا لم يتم إعطاؤه حقه من البحث لأنه المسؤول الأول عن تغيير التوجه الديني للمنطقة ، يقول :

(We suggest that the explanation is rather to be in the uniqueness of a form of Christianity which dominated and modified North Africa's religious concept during the Vandal period and left its impact throughout the Byzantine restoration) (C.J, 1960, p 382) .

ليصل في نهاية المقال إلى نتيجة مفادها أن اختفاء المسيحية من شمال إفريقيا لا يعود بالتأكيد إلى بربرية السكان المحليين و لا إلى تميز الثقافة المحلية و لا إلى الإقتصاد أو السياسة و لا حتى إلى المسلمين الفاتحين و إنما يعود بكل تأكيد إلى تميز و طبيعة المذهب المسيحي المنتشر فيها و المسيطر عليها يقول :

(The disappearance of Christianity in North Africa in the wake of the rise of Islam was due primarily to a religious cause which was supplemented by cultural, economic, military and political factors .and the Vandal invasion and conquest of North Africa bringing, as it did, a modified Arianism which was culturally and religiously suitable to the North Africans and imposing it upon them, played the key role in Christianity's disappearance from North Africa) (C.J, 1960, p 395).

و على سبيل الحصر نستطيع جمع الأسباب الجزئية التي أدت إلى اندثار الكنيسة في شمال إفريقيا تحت نوعين رئيسيين ؛ الأسباب الداخلية و الأسباب الخارجية ، لعلنا نستطيع استيعاب مدى دقة و حساسية الوضع و خصوصية المسيحية في المنطقة:

1.2- الأسباب الداخلية: فتتعلق بالكنيسة الإفريقية في حد ذاتها؛ تنظيمها المستقل و رجالها الأحرار ثم طبيعة علاقتها الإدارية بأسقفية روما و التي تميزت بنوع من الندية ؛ فقد كانت (روما) تطمح لسيادة العالم المسيحي كله ، أما (قرطاجة) فقد كانت مهد الكاثوليكية الأول فكريا و لاهوتيا حتى أن الإمبراطور قسطنطين أراد نقل عاصمة الإمبراطورية من روما إليها بعد أن دمرتها القبائل الجرمانية إلا أن رأيه استقر أخيرا على بيزنطة لعدة أسباب ، يقول الدكتور ممدوح حسين حول الموضوع : " منذ حدوث الخلاف المذهبي و اعتناق مسيحيي الغرب للمذهب الكاثوليكي أخذت كنيسة روما و قرطاجة تتنافسان على زعامة المسيحية في هذا الغرب ، و مع أنه لم يكن في إمكان كنيسة قرطاجة إحراز السبق على كنيسة (روما) لعدة أسباب أهمها مكانة روما في نفوس سكان العالم الروماني لكونها عاصمته و ما كانت تتمتع به في أذهان الناس من مجد كبير ثم ارتباطها إرتباطا أبديا بذكرى القديس بطرس ..فضلا عن عامل آخر هو مقاومة كنيسة روما للهجمة الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس للميلاد الأمر الذي جعلها تحتفظ بكيانها .. في حين أن كنيسة (قرطاجة) قاومت هجمات البربر أولا ثم الهجمة الوندالية حيث تصدت لها بكل ما أوتيت من قوة مما جعلها هدفا للضغط الشديد و التجميد..كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت كنيسة (روما) تتفوق على كنيسة (قرطاجة) و مع ذلك فإن هذا التنافس الذي قام بين الكنيستين إنما يدل على أنه كان هناك قدر كبير من الندية بينهما ، و أن كنيسة قرطاجة كانت ترى نفسها مساوية لمنافستها في المكانة إن لم تكن تفوقها سيما و أن هذه الزعامة التي أحرزتها كنيسة روما لم يجر الإجماع على الإقرار بها و على أية حال فقد بقيت كنيسة قرطاجة محتفظة بمكانتها السامية في نفوس مسيحيي الغرب و كانوا يعتبرونها الثانية بعد كنيسة روما " (حسين، 1998 ، ص60-61) .

كما لا ننكر الأثر القوي لعدم الاستقرار الداخلي السياسي و الديني في المنطقة و الذي سببته سياسة السلطة الرومانية الوثنية و المتمثلة في الإضطهادات الدينية خاصة و التي أضعفت شوكة المسيحيين و استقرارهم ، ثم رد فعل المسيحيين أنفسهم عليها و المتمثلة في الإرتدادات و الجحود و الإنشقاقات في صفوفهم الأمر الذي اعتبره اللاهوتيون هشاشة و ضُعا في الوجود المسيحي بالمنطقة ، بالإضافة إلى أن تركيز قوة هذا الوجود في المدن الكبرى بين الرومان و المترومنين (أصحاب الثقافة اللاتينية) أدى إلى سرعة عطبه بكثرة الإرتدادات في المناطق الداخلية البعيدة عن التأثير المباشر للسلطة المسيحية بالإضافة إلى المحافظة على هويتها الوطنية مما أدى لكثرة الإضطهادات ضدهم من كل الأطراف ، و هذا أدى بدوره لتداعي وحدة الكنسية ككل (البشير، 1978 ، ص31-32) ، و بالخصوص بعد تحول الإنشقاق الدوناتي من صراع ديني في صفوف المسيحية الكاثوليكية إلى صراع عسكري اكتمل المشهد المحزن للمسيحية في المنطقة ، ليحل القرن الخامس على المنطقة بالغزو الوندالي الأريوسي بين سنتي 430م -530م لتبدأ سلسلة جديدة من الإضطهادات بين الكاثوليكية مهتلة في السلطة البيزنطية و الأريوسية مهتلة في الوندال ، و قد حاول الإمبراطور جستنيان (482-565م) استرجاع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية المقدسة في المنطقة إلا أنه لم يستطع فقد استمرت هذه الصراعات داخل الكنيسة المسيحية بين ثلاثة مذاهب مسيحية (الكاثوليكية - الأريوسية - الدوناتية) إلى غاية الفتح الإسلامي ، و قد أدت حالة عدم الاستقرار هذه إلى توقف الإبداع الثقافي في أورشلة قرطاجة و كنائسها عند اللاهوتي و الفيلسوف المسيحي القديس أوغسطين(354-430م) الذي يُمثل قمة الحياة الفكرية و الدينية في إفريقيا المسيحية و في الغرب الكاثوليكي ، و كانت فلسفته تدور حول محور رئيسي هو(أن الكنيسة من صنع الله و لها وظيفة مقدسة تبرر سيادتها على السلطة الزمنية) و لنا أن نتصور ما أنتجته هذه الفكرة خلال العصور الوسطى حيث يعلق الدكتور مهدوح حسين بقوله : "إن كانت كنيسة (قرطاجة) قد تخلفت عن كنيسة (روما) في إحراز زعامة المسيحية في الغرب فإنها فاقتها في أثرها في الفكر المسيحي إذ أنها أنجبت من المفكرين الذين أثروا في هذا الفكر بما قدموه من نظريات و آراء دينية على مدى عدة أجيال ما لم تعرف كنيسة روما مثلهم "(حسين ، 1998 ، ص61) ليصل إلى نتيجة مفدها أن : "كفاح إفريقية الطويل في سبيل نُصرة المذهب الكاثوليكي و ما قدّمه مفكروها للفكر المسيحي الغربي قد عزّز الروابط بين مسيحيتها و مسيحيي الغرب الأوروبي لوحدة المذهب الديني بين الطرفين ..و هذا يكفي لتفسير ما كانت تشعر به البابوية بصفة خاصة و مسيحيو الغرب الأوروبي بصفة عامة من حنين لأمجاد كنيستها منذ الفتح الإسلامي و الإصرار على استعادتها للهيمنة المسيحية احتراماً و تقديراً لتلك الأمجاد "(حسين، 1998 ، ص67)، و لكن المؤكد أن العزلة التي

عانتها كنيسة قرطاجه لم تكن من جانب روما وإنما من جانبها هي فهي من اختارت العزلة الداخلية ؛ فرغم أن المسيحيين حاولوا الاندماج في المجتمع الإسلامي في المنطقة والشواهد التاريخية كثيرة على هذا التسامح الديني الذي ضمنه الشريعة الإسلامية لهم ، و لكن هذا لم يضمن لهم البقاء و الإستمرار على غرار إخوانهم المشاركة و هذا يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة المسيحية المحلية المتميزة بالتعصب و الإستقلالية سواء عن روما أو عن بيزنطة أو حتى عن الإسكندرية ، دون أن ننكر تأثير طبيعة الحكومات الإسلامية في المنطقة خاصة حكومة الموحدين و المرابطين المتعصبة دينيا للعقيدة الإسلامية — الأمر الذي كان له أسبابه الداخلية الخاصة بالمنطقة ذاتها و الآتية أيضا — و ليس له علاقة مباشرة لا بالمسيحيين أو اليهود كأقليات دينية ، ف كلا الطرفين كان متعصبا لذاته رافضا لتقبل الآخر مما عجل بالزوال المحتم للطرف الأضعف .

2.2- الأسباب الخارجية: فتتعلق بالدولة الرومانية و سياستها الدينية تجاه المسيحيين و المتمثلة في الإضطهادات و خاصة اضطهادات الإمبراطور دقلديانوس (303م-313م) و التي أضعفت الكنيسة جدا و خاصة في شمال إفريقيا إذ كان للمراسيم التي أصدرها تداعيات جسيمة على المسيحية في المنطقة ، بالإضافة إلى سياسة الرومنة التي تتضمن الإدماج القهري و سياسة التجويع و الإستبعاد و غيرها من الوسائل التي استعملتها الدولة الرومانية ضد سكان المقاطعات كلها و الذين قابلوها بالتمرد و الثورة قبل و بعد إعلان سياسة التسامح الديني المفخخة مع المسيحية ؛ السياسة التي اختارها الحكام الرومان كأسلوب جديد لحماية مصالح الدولة المهددة ؛ فكانت البداية بمرسوم سنة 311م مع إمبراطور الشرق غاليريوس (250-311م) الذي دافع فيه عن الحرية الدينية للأقليات الدينية ، ثم مرسوم ميلان للإمبراطور قسطنطين (272-337م) سنة 312م الذي مهّد فيه لمجمع آرل 314م بين رجال السلطة الزمنية و رجال الكنيسة و الذي أعطى لهم فيه حقوقا و امتيازات مدنية لاستمالتهم و لإيجاد صيغة نهائية لدمج الكنيسة في الدولة و تجنيد رجالها لدعم السلطة الزمنية وفق مبدأ (دولة واحدة ، كنيسة واحدة ، مذهب واحد) ؛ فقد جاء في قرارات اجتماع آرل بخصوص فرار الجنود المسيحيين من الجيش (أن كل جندي مسيحي يرمي بسلاحه يُطرد من المسيحية أيضا) و هذا دليل على القوة الكبيرة التي كانت تتمتع بها الكنيسة كمؤسسة دينية داخل مؤسسات الدولة مما استوجب التعامل معها كشريك لا كعدو ، ثم إن قسطنطين سن قانونا سنة 316م خلال مجمع قرطاجة الأول يقضي بتوحيد كنيسة إفريقيا و قمع المخالفين و المنشقين من الدوناتيين ، و كل هذه القرارات تصب في اتجاه واحد هو خدمة الدولة و تسخير قوة الكنيسة لذلك، حتى أصبحت الكنيسة هي الحاكم الفعلي للدولة الرومانية نهاية القرن

الرابع للميلاد في عهد الإمبراطور (ثيودوسيوس العظيم 395-347م) الأمر الذي نظر له و عمل على تنفيذه القديس أوغسطين في كتابه (مدينة الله و مدينة العالم).

لقد كان من المفروض أن تساعد كل هذه المستجدات المسيحية على الإستقرار و الرسوخ في المنطقة كما حدث لأخواتها في المشرق ولكن الأمور لم تسر كما يجب إذ لم يزد تمسح الدولة الرومانية الكنيسة في شمال إفريقيا إلا ضُعفا و انهيارا ، لماذا ؟ ، ما يلاحظ على هذه الأسباب التي اجتهدنا في تقسيمها هو ترابطها القوي فكلها أسباب و نتائج لبعضها البعض مما يجعل تقسيمها أو تحميل مسؤولية زوال الكنيسة من شمال إفريقيا لأحدها دون الآخر لا يستقيم دون الحفاظ على الترابط الطبيعي بينها ، فليس هناك ظاهرة إنسانية تحدث بمعزل عن التأثيرات الخارجية لطواهر أخرى سابقة أو مصاحبة لها ، و هذا بالضبط ما حدث للكنيسة في المنطقة و التي رغم عظمتها التي يشهد لها بها تاريخ الكنيسة الكاثوليكية و المسيحية ككل ، إلا أن اجتماع العديد من العوامل التاريخية قضى على وجودها تماما فأصبحت حلما بعد علم و أهمها على الإطلاق :

المقاومة و الرفض المحلي للسيطرة الأجنبية بكل أنواعها الأمر الذي لم يسمح للمسيحية بالإستقرار و الإنبات في المنطقة ، بالإضافة إلى كون ذلك الرفض مقاومة للسلطة المستعمرة (الرومانية) التي لبست ثوب الدين الجديد لتسيطر عليهم من جديد بمساعدة رجال الدين الذين فقدوا بهذا الفعل مصداقيتهم و مكانتهم لدى العامة مما ألّبهم عليهم ، ثم إن الظروف تعقدت أكثر بعد اتحاد الثورة الدينية (الدوناتية) بالثورة الشعبية (حركة الدوارين)؛ فتورة الدوارين ⁵circuncillias (انظر التعليق 5) هي ثورة ضد سياسة الرومنة و الإدماج التي تقوم على نزع الأراضي و إحلال الأجانب محل الملاك الأصليين بل و استعبادهم لهم و تسخيرهم لخدمة الأرض ، هي في الأساس ثورة اقتصادية إجتماعية و لا علاقة لها بالدين بل لم تكن لهم أية علاقة بالمسيحية فهم وثنون باتفاق الجميع وفق الدين الكنعاني ، و أما الدوناتية⁶ (انظر التعليق 6) فكانت انشقاق ديني عن كنيسة قرطاجة لأسباب لاهوتية محضة إلا أنها اتخذت الصبغة السياسية لاحقا حينما رفضت تدخل السلطة الزمنية الرومانية في الشؤون الدينية الداخلية للكنيسة و تعيين رجال دين مشكوك و مطعون في نقاء تدبيرهم ، إلا أن مصالح كل منهما التقت في فترة زمنية معينة خلال القرن الرابع للميلاد فاتحدتا لمحاربة السلطة الرومانية و حليفتها كنيسة قرطاجة ، و لكن هذا لا يعني المساواة بين الفرقتين فقد كانتا مختلفتين جدا و خاصة في الجانب العقدي و أنهما لم تتفقا إلا على كره المستعمر الروماني و سياسته ، يقول الدكتور شنبتي في مقاله (حول الدوناتية و ثورة الريفين) عن الدوناتيين : " كان من دواعي نجاحهم أنهم استمدوا طاقتهم من الطبقة الأكثر تضررا بالنظام الإقتصادي و الإجتماعي و المناهضة

للإستعمار الروماني و هو عكس ما فعلته الكنيسة الكاثوليكية الرسمية التي اعتمدت على السلطة و على الطبقة الثرية في المجتمع ، و هكذا أصبح الخلاف الديني صراعا اجتماعيا أساسه التمايز الإقتصادي و الإجتماعي .. " (البشير ، 1978 ، ص31) أي أن السبب الديني اندمج بالدافع الإقتصادي و الإجتماعي لتصبح الدوناتية(دينا و طنيا يجمع حوله مختلف الفئات الشعبية الناقمة على الوضع السائد) ، و مما يدل على عدم الإتفاق العقائدي بين الفرقتين التقريع الذي كتبه القديس أوغسطين حينما حمل الدوناتيين مسؤولية الأعمال التخريبية للريفيين(الدوارون) يقول : " تذكروا الأعمال التخريبية التي كان يقوم بها الدوارون الذين كانوا دائما تحت قيادة شماستكم "(البشير ، 1978 ، ص32) إذا يُعد اتحاد الدوناتيين بالدوارين خلال منتصف القرن الرابع للميلاد تحولا خطيرا في تاريخ الحركة حسب رجال اللاهوت حيث أعطاه ذلك قوة عسكرية إضافة إلى قاعدتها الشعبية الكبيرة ، إذ تمكنا العودة إلى بحث الدكتور عبد الحميد عمران المعنون ب(الحركة الدوناتية بين الإنشقاق الديني و التحرر 305-411م) من تحديد أهم معالم تاريخ هذه الحركة بداية بظهورها الأول في مجمع سيرا سنة 305م إلى وقت إدانتها كهرطقة في مجمع قرطاجة سنة 411م و تجريدها من كنائسها و مطاردة أتباعها على يد القديس أوغسطين ، و رغم أن صاحبها (الأب دوناتوس) توفي سنة 355م في المنفى في إسبانيا الكاثوليكية إلا أن الحركة و المقاومة استمرت بعده و أخذت أبعادا جديدة ، و عموما تُجمع المراجع و الدراسات التي قام بها المؤرخون الأجانب و المغاربة على السواء أن سبب استمرار الإنشقاق الدوناتى هو الظروف الإقتصادية و الإجتماعية و السياسية و ليست الظروف الدينية وحدها خاصة بعد وفاة صاحبها (الأب دوناتوس) و اتحادها مع حركة الدوارين الثورية ، و هذا يؤكد من جديد طبيعة المنطقة المقاومة و الراضة للخضوع للأجنبي و الساعية إلى الإستقلال دائما .

كما تجدر الإشارة أيضا إلى دور (الوندال الآريوسيين) في محاربة المسيحية الكاثوليكية في المنطقة واضطهادها طوال قرن من الزمن إلى أن شنَّ الإمبراطور البيزنطي(جوستينيان)حملته لاسترجاع مقاطعة شمال إفريقيا و التي تضمنت أيضا سن القوانين و المراسيم ضد الوندال و ضد الدوناتيين و كل المذاهب المناوئة للمذهب الكاثوليكي و هذا جعل هذا الأخير يزدهر نوعا ما إلى غاية قدوم المسلمين في لقرن السابع للميلاد لينحصر الوجود المسيحي في المنطقة و يقتصر على المدن الساحلية الكبرى و لكنه لم ينته تماما إلا في القرون اللاحقة ، يقول لودفيغ هاغمان في كتابه (مسيحية ضد الإسلام؛ حوار انتهى إلى الإخفاق) معلقا على هذا الأمر : "... على أن غزو شمال إفريقيا الذي جرى على يد الوندال الجرمان في عام 429م كان يعني نكسة فادحة

للثقافة الرومانية و للمسيحية التي كان يختلف فيها على أي حال إلى درجة بعيدة ، و شن ملوك الوندال الآريوسيين حملة اضطهاد بالغة على مسيحيي شمال إفريقيا كانت تطراً عليها حدة تزداد أو تنقص حتى لقد بدا أن تلك الطوائف محكوم عليها بالفناء ، و كان مقدراً لحملات الوندال القمعية و الإضطهادية أن تدوم أكثر من مئة عام ، و الحق أن إعادة سيطرة الدولة في عام 534م أيام جستنيان الأول حملت معها مرة أخرى فترة إلتقاط أنفاس لمسيحية شمالي إفريقيا ، غير أنها سقطت آخر الأمر أمام العرب المسلمين الذين أغاروا على هذا الإقليم في عام 643م و كانت المنازعات داخل الكنيسة و التفكير التنافسي فيها يحول دون استعادة الكنيسة صحتها .. و كانت تلك الإجراءات التي اتخذها الإمبراطور جستنيان في مرسومه الصادر في آب عام 535م تنطوي على قسوة مفرطة ، و لكي يدعم الوضع المتميز للمذهب الكاثوليكي قضى بإغلاق المعابد الآريوسية و الدوناتية و اليهودية و الوثنية ، و بدلاً من أن يُسهم جستنيان في توطيد السلام أوجع أشكال التوتر داخل الكنيسة من جديد و لم يكن في وسعها أن تصمد في وجه الغزو الإسلامي " (هاغمان ، 2004 ، ص 40) ، و بعد فتح مصر على يد الصحابي عمرو بن العاص استطاع المسلمون أن يزحفوا منها على الإقليم البيزنطي الكاثوليكي في إفريقيا و تم إنشاء مدينة القيروان سنة 670م لتكون مركزاً دينياً و عسكرياً انطلقت منه حركة الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا يضيف هاغمان : " أصبح الشمال الإفريقي بكامله باستثناء ستة في يد المسلمين و فر قسم من المسيحيين و لاسيما الرومان إلى إيطاليا بينما دخل جمهور البربر المحليين في الإسلام و لم يكن هناك بدٌ للقسم المتبقي من المسيحيين من الخضوع لشروط الفاتحين ، أي دفع الجزية ، و أتيحت لهم حرية العبادة و في مقابل ذلك حُظر عليهم إعلان عقيدتهم على أن الضغط الكبير بدأ في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بين عامي (717-720م) على البربر الذين ظلوا على مسيحيتهم جرهم للدخول القسري في الإسلام ...و على هذا فما من طريق يُفضي إلى حقيقة أن المسيحية هنا لم تستطع أن تصمد في وجه الغزو الإسلامي و أفلت شمسها بسرعة حقا خلافا لما كان عليه الحال في مصر و ذلك على الأقل من حيث كونها رقعة كبيرة منظمة ، و بتلاشي المسيحية في المغرب انكمش العالم المسيحي و باتت المسيحية الشرقية و الغربية تواجه الإسلام ...و لم تؤخذ مأخذ الجد حقيقة أن أفول نجم المسيحية في شمال إفريقيا يعني ضياع إقليم كامل و كانوا لا يعون حجم المأساة ... " (هاغمان ، 2004 ، ص 41-42) ، لذا كان التواجد المسيحي في المنطقة زمن الفتح الإسلامي يضم المذاهب المسيحية (الدوناتية) المذهب المحلي المنشق عن الكاثوليكية و الذي يرجح أن أتباعه أسلموا ، و المذهب (الآريوسي) الوافد الذي يرجح أيضا أن أتباعه أعجبهم الإسلام أما المذهب (الكاثوليكي) فهؤلاء بقوا كأهل ذمة عند المسلمين إلى أن غادروا البلاد ، فقد كتب

المتخصص في المذهب الدوناتى المؤرخ **Frend W.C** أن الإستمرار المسيحي في المنطقة لم يكن على ذات المستوى و لم يكن لنفس المذهب المسيحي و لكنه هو الآخر ربط اختفاء المسيحية باعتراف السكان المحليين للإسلام ؛ إذ يرى أن اختفاء المسيحية الكاثوليكية كان سريعا نوعا ما في إقليم البروقنصلية و البيزاليكا التي تسيطر عليها الدوناتية مقارنة بنوميديا و موريطانيا اللتان ظلنا معقلا للكاثوليكية البيزنطية إلى أزمدة متأخرة يقول :

(In the Vandal period ,the main theme in African church history is the comparatively rapid decline of the Catholic Church from the pre-eminence gained in the last generation of Roman rule ...The arrival of the Vandals seems to have caused an immediate and spontaneous outbreak of feeling against Catholicism in which the clergy were the chief sufferers)(Frend, 1952, p. 301) .

ثم إن الإنشقاق بين الدوناتية و الكاثوليكية ظل قائما في المنطقة حتى دخول الإسلام إلى المنطقة ليختفيا منها جميعا يقول :

(Thus Donatist and Catholic remained divided from each other until both were swept away by Islam) (.w.c, 1952 . p 315)

الخاتمة: توصلنا في نهاية البحث الى جملة من النتائج من أهمها :

* يؤكد التاريخ أن السكان المحليين اعتنقوا المسيحية و قاتلوا من أجلها و ضحوا بأرواحهم ثمنا للتمسك بها و عدم التخلي عنها لصالح الوثنية الرومانية ، و التاريخ المسيحي ذاته يستشهد بسير رائعة لشهداء قديسين من المنطقة كانوا عنوانا للمقاومة و الذود عن العقيدة المسيحية ، كما يفتخر بقامات علمية فريدة أصولها شمال إفريقيا خدمت المسيحية بل و شكلت معالم اللاهوت الكاثوليكي كله أمثال:كابريانوس — ترتوليانوس — أوغسطينوس ، و منهم أيضا من وصل إلى كرسي البابوية و حكم أسقفية روما ذاتها أمثال

* كما أن السكان المحليين لم يكونوا كتلة بشرية متجانسة فكان منهم من لم يعتنق لا المسيحية و لا اليهودية و بقي على وثنيته ، كما كان منهم من تخلوا عن

المسيحية وارتدوا عنها بعد أن دخلت تحت جناح السلطة الرومانية عدوهم اللدود و أخبار ارتدادهم و تخليهم عن المسيحية الرومانية مشهورة في كتابات الآباء و القديسين ؛ فالسكان المحليون قاوموا الإحتلال الروماني و كل ما يتعلق به بقوة و ثبات طوال ستة قرون خلت فليس من المستبعد أن يرتدوا و بكل سهولة عن المسيحية بمجرد أن دجنتها السلطة و أدخلتها تحت حمايتها و جعلتها عميلة لها في المنطقة .

* أهم أسباب زوال أبرشية قرطاجنة و الديانة المسيحية كلها من منطقة شمال إفريقيا كان في الحقيقة سببا داخليا هو(الصراع الداخلي) و انقسام المسيحية فيما بينها إلى كنيستين متناحرتين ؛ الأولى الدوناتية التي تمثل المذهب المسيحي المحلي و رمز المقاومة و رفض المذاهب الأجنبية مهما كانت صفتها ، كان مقرها مقاطعة نوميديا و كانت كل الكنائس المحلية شرقا و غربا تابعة لها ، و أما الثانية هي الكنيسة الكاثوليكية التي تمثل المذهب الرسمي لمقاطعة إفريقيا الرومانية المرتبطة بأسقفية روما العظيمة و التي تمثل الاندماج مع السلطة الزمنية و الوحدة الدينية في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، و التي كان مقرها أبرشية قرطاجنة في البروقنصلية و كانت تحكم بعض الكنائس الكبرى في المدن الساحلية مثل (هيو) .

* من الأسباب القوية أيضا لزوال المسيحية من شمال إفريقيا محاولتها الإستقلال عن الأبرشيات الكبرى العريقة (روما و الإسكندرية) و خاصة روما التي كانت تضمن لها المدد و المساعدات و التمثيل الرسمي و الحماية أمام السلطات الإسلامية ، لكنها أرادت أن تبني لها كيانا دينيا مستقلا و فريدا متناسية الضعف و الهشاشة التي تعانيها داخليا و هذا عجل بزواها .

* عدم بقاء المسيحية ضمن المجال الإسلامي في المنطقة و مقاومته للإستمرار لم يكن مفاجئا بل كان له أسبابه و مقدماته التي ذكرناها ، و كذلك من المؤكد أن الفتح الإسلامي للمنطقة لم يكن سببا مباشرا و لا وحيدا لذلك الإختفاء رغم تأكيد الدراسات اللاهوتية على أهمية طبيعة الحكومات الإسلامية القاسية في المنطقة في القضاء التدريجي على الأقلية المسيحية فيها و التي ما فتئت تتضاءل حتى اختفت تماما من المجال الإسلامي الإفريقي في أوقات مبكرة .

¹ **الخصي الحبشي** : عبد حبشي كان أول من تنصر من مملكة (أكسيوم= الحبشة) وهي حاليا (إثيوبيا) والتي أقيمت بها أول دولة مسيحية في العالم خلال القرن الرابع للميلاد زمن الملك (عزيا) قبل روما ذاتها .

² **مرقص الرسول** من (قورينا Cyrene= شحات حاليا) في ليبيا وهي إحدى (المدن الخمسة الغربية الليبية) (البنابولس) فيرجح أنه أدخل المسيحية إلى ليبيا بعد أن سافر إليها من روما ثم انتقل إلى مصر أين وضع أسس كنيسة الإسكندرية .

³ **شمعون القوريني** من قورينا أيضا وهو أحد الأربعة الذين حملوا الصليب الذي صُلب عليه السيد المسيح ، لكنه بشر في بلاد الأناضول ، بينما عاد ابنه إلى شمال إفريقيا .

⁴ **قورينا او كورينا** Cyrene او شحات حاليا و اشتهرت في الفترة الرومانية بالمدن الخمسة pentapolis ، كما انها ليست مدينة القيروان التي بناها المسلمون في تونس .

⁵ **Circuncillias (الدوارون)** : ما يُفهم من معنى تسميتهم أنهم من يدورون بين المزارع و البيوت الغنية للسلب و النهب و إطعام الفقراء. فهم من السكان المحليين الذين يدعون البربر —نظرا لهمجيتهم المفرطة و رغبتهم الجامحة في الإستقلال بالقوة- و أكثر مصدر تاريخي وصفهم و صورهم بـصور جد مشوهة هو كتابات المؤرخ (أوبتا ميلي Optatus de Milev 341-397م) المعاصر للقديس أوغسطين و الذي يُظهر تحاملا قويا ضدهم خاصة أن الكنيسة الكاثوليكية ضعفت جدا في فترة حكمه لكنيسة سيرتا بسببهم ، بالإضافة إلى كتابات القديس أوغسطين و التي كانت موجهة لكل من يهدد الكنيسة الكاثوليكية سواء كان من الدوناتيين أو الأريوسيين أو غيرهم من المنشقين و الهراطقة ، هذا بالإضافة إلى المؤرخين المحليين ؛ أرنوبيوس و أفريكانوس و مؤرخ الإمبراطور في الغرب لاكتانتيوس .

⁶ **الدوناتية** : ليست هرطقة مسيحية بل هي مذهب منشق كسر عصا الطاعة في وجه الكنيسة الكاثوليكية تنسب إلى (الأب دونا العظيم) من نوميديا ، تمثلت مطالبتها في الإستقلال عن السلطة الزمنية و كذا عن أسقفية روما خاصة بعد الخلافات اللاهوتية بين الأسقفيتين حول إعادة تعميد المرتدين و الخونة زمن الإضطهادات ، كما أنها الوحيدة التي فُهمت تماما مقاصد الإمبراطور قسطنطين من تغيير سياسته الدينية تجاه المسيحية و المسيحيين .

قائمة المصادر و المراجع :

- الأنبا يوهانس (1980): الكنيسة المسيحية في عصر الرسل ، ط3، القاهرة ، مطبعة الأنبا رويس .
- اليسوعي بولس سيزيه (1993): أسباب زوال الكنيسة في إفريقيا الشمالية بعد الفتح العربي ، ترجمة: الأب كيمل حشمة اليسوعي ، موسوعة المعرفة المسيحية —تاريخ الكنيسة 6-، ط1، لبنان ، دار الشرق .

- بازامة محمد مصطفى (د ت): موسوعة آباء الكنيسة ، ج2، ط2، مصر ، دار الثقافة .
- جوليان شارل (1983): تاريخ إفريقيا الشمالية ، تعريب: محمد مزالي و البشير بن سلامة ، ط2، تونس، الدار التونسية للنشر .
- دانيال روبين (1999): أصول التراث المسيحي في شمال إفريقيا ؛ دراسة تاريخية عن القرنين الأولين ، ترجمة: سمير مالك ، د ط ، لبنان ، دار منهل الحياة .
- دبو محمد علي (2010): تاريخ المغرب الكبير ، ج1 نط2 المملكة المغربية ، مؤسسة تاوالت الثقافية .
- كامب غابرييل (2014): البربر ذاكرة و هوية ، ترجمة عبد الرحمان حزل ، د ط ، الدار البيضاء ، إفريقيا الشرق .
- لوريمر جون (1982): تاريخ الكنيسة ، ج1، ط1، مصر ، دار الثقافة .
- ممدوح حسين (1998): الحروب الصليبية في شمال إفريقيا و أثرها الحضاري (1270-1390م) ، ط1، عمان ، عمار للنشر .
- منسي يوحنا (د ت) : تاريخ الكنيسة القبطية ، د ط ، مصر ، مكتبة المحبة .
- ميخائيل مينا ونيس (2001): دراسات في آباء الكنيسة ، طنطا ، الكلية الإكليريكية اللاهوتية
- فرج عادل (2006): موسوعة آباء الكنيسة ، ج2، ط2، مصر ، دار الثقافة .
- شنييتي محمد البشير (1978): حول الدوناتية و ثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن 4م ، مجلة الأصالة ، مؤسسة الأصالة ، عدد 60، ص24-39.
- هايمان لودفيغ (2004): مسيحية ضد الإسلام ؛ حوار انتهى إلى الإخفاق ، ترجمة: محمد جديد ، ط1 ، سوريا ، قدمس للنشر و التوزيع .
- Frend .W.C(1952): The Donatist Church ;A movement of protest in Roman North Africa ,Oxford University Press , London, Amen House .
- Philip Jenkins (N.D): The Lost History of Christianity; The Thousand-Years Golden Age of the Church in the Middle East, Africa and Asia and how it died? , HarperCollins e-books.
- Speel.C.J (2016): The Disappearance from North Africa in the Wake of the Rise of Islam, Church History, V29, N04 (Des, 1960) (www.JSTOR.org) /28-06-2016.